مدينة طرابلس الغرب

للأديب مصطفى بعيو الطرابلسى

من بين المدن العديدة التى يتردد ذكرها فى هـذه الأيام على صفحات الجرائد « مدينة طرابلس الغرب » عاصمة الإقليم المعروف باسمها ومقر حكومة ليبيا الإيطالية ، وهى مدينة إغريقية فى اسمها ومعناه المدن الثلاث ، وهى « سبراتا Sabrata » ، وكان البربر يسمونها « زواغة » قبل أن يلقبها العرب « بصبرة » ، وهى اليوم تدعى « زوارة » ؛ ثم « أوا Oea » التى هى أويات فى نظر البربر قبل أن يحرفها الرومان إلى اللفظ السابق عند استيلائهم على تلك البلاد ، وأخيراً « ليبدس Leptis » التى لم يبق منها إلا آثار متهدمة تشهد على عظمتها فى سابق عهدها ، وقد حلت محلها اليوم مدينة « الخمس » العامرة ، وأصبح أهالى البلاد يطلقون اسم « لبدة » على تلك الأطلال الخربة

وجدير بالملاحظة أن كلمة « طرابلس » لم تكن معروفة حتى القرن الرابع (ق . م) عندما أطلقها الكتاب الرومانيون على تلك المدن الثلاث السابقة الذكر ، ولكن هذه الكلمة تغير مدلولها فى العصر البيزنطى ، وأصبحت تطلق على « أوا » فقط دون غيرها . ولما جاء العرب استعملوها على هذا النحو ، إلا أنهم أضافوا إليها كلمة « الغرب » تمييزاً لهذه المدينة عن مدينة « طرابلس الشام » ، وكانوا يسمونها أحياناً « أطرابلس » بزيادة الهمزة فى أولها ، على أن صاحب القاموس قد ضبط اسمها بفتح الطاء وضم الباء واللام وجعل الهمزة من مميزات الشامية ، ولكن البكرى والتيجانى وغيرهما يرون إلحاق الهمزة بمدينة « طرابلس الغرب » ، وهذا ما أرجحه لأن الأهالى إلى وقتنا هذا ما زالوا ينطقونها أحياناً بهذا الشكل

ويرجع تاريخ إنشاء مدينة « أوا » إلى أوائل القرن الخامس ق . م . ونظراً لحسن موقعها وصلاحية مرساها للسفن بسط الفينيقيون سيادتهم عليها حتى تم لهم السيطرة على البحر الأبيض

مليوناً من السنين معروفاً أصبح من السهل جداً أن نعرف عمر الأرض بمعرفة النسبة بين الرصاص واليورانيوم فى منجم واحد . وقد قدر عمر النظام الشمسى بما لا يقل عن (١٣٠٠) مليون من السنين . وهو كما يلاحظ القارئ يتفق تمام الاتفاق مع ما قدره جفرز من قبل

وجاءت من السماء رسائل تؤيد هذا التاريخ حملها الشهب والنيازك التى عجز الهواء المحيط بالكرة الأرضية أن يحرقها تماماً فسقطت جلاميد كبيرة على الأرض وأحدثت أغواراً عميقة كحفرة أرزونا مثلاً ، وفى كثير من هذه الجلاميد يلتقى عنصر الراديوم ونقايته وقد وجد أنه ليس بين الحجارة التى امتحنت مازاد عمره على (٢٩٠٠) مليون من السنين وما قل عن السن التى شهدت بها الصخور الأرضية

وكما أن لكل بداية نهاية فلا بد للأرض أن تهرم وتموت ، متى ؟ هـذا بيد الله ، فربما لا يزيد هذا الزمن الذى يحير عقولنا ويشعرنا بعظمة الكون عن أن يكون لحظة قصيرة عابرة فى مخيلة المهندس الأكبر وربما يكون المستقبل أرحب وأوسع بكثير من الماضى

وفى نفس الوقت الذى يكون القارئ لنفسه رأياً فى هذه الأرقام الضخمة ، أرى أن أذكره بتلك اللمعات الفنية والإشراقات الذهنية التى تمر بذهن العالم ، وأن أشير عليه أيضاً بالتزود ما استطاع من الثقافة العلمية . ففى الأخيرة لذة وطرافة وقصص رائع لا تقل عما يلقى فى غير العلم من ميادين الثقافة الواسعة

(تجهيز السلط)

خليل السالم
(ب . ع .) من الدرجة الأولى
فى الرياضيات

المتوسط ؛ ثم ورثهم فى هذه السيطرة خلفاؤهم القرطاجنيون الذين أسلموها بدورهم إلى الرومان على أثر هزيمة قرطاجنة فى الحروب البونية خلال القرن الثانى ق . م . ويذكر لنا بروكوبيس Procopius أحد مؤرخى الرومان أن الوندال عند ما استولوا على مدينة أوا « طرابلس الحالية » هدموا أسوارها ، ولكن ليس هناك شك فى أن البيزنطيين قد أعادوا بناءها عند استرجاعهم لها فى عصر الإمبراطور جستنيان بدليل ما نراه من أثر التجديد البيزنطى فى بقايا الأسوار التى ما زالت إلى اليوم . ولكن هذه الأسوار لم تكن تامة الإحاطة بالمدينة من جهة البحر مما سهل على العرب فتحها على أيدى جنود عمرو بن العاص ؛ ولهم فى ذلك قصة ترويها كتب التاريخ تتلخص فى أن عمرو بن العاص قد ضرب حصاراً على المدينة من جهة البر وأقام يتحين الفرص للاستيلاء عليها حتى واتاه ذلك عندما خرجت جماعة من جنوده للصيد ، فلما شعرت بوطأة الحر توجهت إلى البحر لتخفيف ما تشعر به ، وكانت المدينة تشرف على البحر مباشرة لا يفصلها عنه أى حاجز ؛ فوجد الجنود طريقاً إلى المدينة على أثر جزر البحر فتسللوا إلى داخلها . ولما كانت دهشة الرومان عظيمة عند ما سمعوا تهليل هؤلاء الجنود وتكبيرهم مما دفعهم إلى الاحتماء بسفنهم . وأبصر عمرو أصحابه فى جوف المدينة فأقبل بجيشه واستولى عليها بعد أن سهل عليه أصحابه تلك المهمة . وقد فطن العرب إلى هذا النقص فى تحصين المدينة فيما بعد مما دعا هرثمة بن أعين — والى المدينة من قبل الخلافة العباسية أن يعمل على إتمام هذه الأسوار من جهة البحر . وبدخول العرب لمدينة طرابلس دخلها الإسلام وانتشرت فيها اللغة العربية ولا تزال لغتها ولا يزال الإسلام دينها على رغم بعض المحاولات الفاشلة

ومما تجب ملاحظته هنا أن المؤرخين قد اختلفوا فى تحديد زمن تبعية هذه المدينة للعرب ؛ فبعضهم يقول إن ذلك تم فى سنة ٢٢ هـ والبعض الآخر يقول إن ذلك كان فى سنة ٢٣ هـ ويمكننا التوفيق بين الطرفين مع عدم أهمية هذا الخلاف لبساطة الفارق الزمنى إذا اعتبرنا جزءاً من الحملة العربية على مصر قد توغل غرباً بعد فتح مصر حتى وصل مدينة طرابلس ثم تبعته بقية الحملة فى سنة ٢٣ هـ . والحقيقة التى لا مراء فيها أن مدينة طرابلس نفسها لم تخضع للعرب خضوعاً تاماً حتى سنة ٢٦ هـ عند ما حاول عقبة بن نافع التوغل فى أفريقية وفتحها ، فاتخذ منها قاعدة حربية لأعماله الجديدة وبقيت بها حامية عربية . وكان والى مصر هو فى نفس الوقت حاكماً لمدينة طرابلس ، ولكنها سرعان ما انفصلت عن مصر عند ما عين عمرو بن العاص والى مصر ابن خالته عقبة ابن نافع بن عبد القيس الفهرى والياً عليها من قبله ، فكان بذلك أول ولاتها الذين لم تصلنا أسماؤهم بعد

عدد الرسالة الممتاز
يصدر فى أوائل شهر فبراير
فارتقبوه

وكانت مدينة طرابلس خلال القرن الثانى والثالث الهجريين ميداناً للقلاقل والفتن الدينية نتيجة لأعمال فرقة الأباضية إحدى فرق الخوارج التى وجدت لها أتباعاً بين قبائل البربر من هوارة ونفزاوة ؛ فأقلقوا بذلك بال الخلافة العباسية بهجومهم المتوالى على المدينة ومحاصرتهم لها . وكذلك كانت حالة طرابلس أثناء حكم بنى الأغلب مما سهل على العباس بن أحمد بن طولون والى مصر أن يغزو تلك المدينة بعد أن استولى على أقليم برقة واستطاع أن يتغلب على حاكمها محمد بن قرهب عند لبدة سنة ٢٥٥ هـ وحصره فى مدينة طرابلس ثلاثة وأربعين يوماً تمكن من بعدها أن يفك الحصار عن نفسه

وتبعاً لقيام الخلافة الفاطمية فى المغرب خضعت طرابلس لسلطانها ، وتولى حكمها أفراد من بنى خزرون الذين أسلموها إلى بنى حفص أصحاب اليد الطولى فى رخائها وتعميرها كما يحدثنا

بذلك التيجانى فى رحلته عند ما زار المدينة سنة ١٣٠٨ م فيخبرنا باقامة الحاكم فى قصر بديع ربما كان القصر الحالى قد بنى على أنقاضه . ويحدثنا عن طريقة حكم المدينة بواسطة مساعدة مجلس من شيوخ المدينة يتكون من عشرة أعضاء . ولا يخفى التيجانى إعجابه بحمامات المدينة ونظافتها وشوارعها الواسعة المنسقة التى يتلاقى معظمها بزوايا منظمة ، كما أعجبته آثارها ومساجدها الملقب بالجامع الأعظم ، ومدرستها المسماة بالمستنصرية ، وأسوارها المحصنة بالأبراج والخنادق . والخلاصة أن الحياة كانت فيها كما وصفها لنا ناعمة مزدهرة . ولكن تنازع أفراد بنى حفص على الحكم وانشغالهم عن الإصلاحات الضرورية جعل المدينة تأخذ فى التدهور والضعف مما عرضها لهجمات أهل جنوا ، إذ كان كثير من تجارها يترددون عليها ، فعرفوا نقط الضعف فيها ، ولم ينقذها من أيديهم إلا تلك الفدية التى قدمها لهم أبو العباس أحمد بن مكى صاحب قابس[1] وقدرها خمسون ألف مثقال من الذهب الخالص

وما كادت المدينة تسترجع أنفاسها بعد هذا الغزو الأجنبى حتى وقعت مرة أخرى فى قبضة الإسبانيين سنة ١٥١٠ م الذين مكثوا فيها عشرين عاماً عاثوا فيها فساداً ولكنهم مع ذلك جددوا قصر حاكمها الذى ما زال محتفظاً ببعض شكله حتى يومنا هذا كما أصلحوا ما تهدم من أسوارها وبنوا الرصيف المعروف باسمهم فى ميناء المدينة لرسو سفنهم واتخذوا منها قاعدة بحرية لمعاكسة أعمال العثمانيين فى البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت . ثم انتقلت بعد ذلك إلى أيدى فرسان القديس يوحنا فى جزيرة مالطة الذين بقوا فيها حتى سنة ١٥٥١ م بمساعدة شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة رغم ما عانوه من هجمات ثوار العرب بمساعدة سكان البلاد الداخلية . وتروى لنا كتب التاريخ قصة طريفة عن مقدمات احتلال الأسبان لمدينة طرابلس ، وهى ولا شك أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة[2] وتتلخص فى أن الأسطول الإسبانى التجارى قدم إلى الميناء فأتى أحد أهالى المدينة واشترى جميع سلع المراكب ودفع لأصحابها الثمن فوراً ، ثم استضافهم رجل آخر فى بيته بعد أن جهز لهم طعاماً فاخراً ، ولما أخرجه لهم أخذ ياقوتة ثمينة وسحقها ورشها على طعامهم فبهتوا لذلك الأمر ، ولما انتهوا من الطعام قدم لهم بطيخاً فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد فى داره تلك الآلة البسيطة الضرورية ولا عند جاره إلى أن خرجوا إلى السوق وأتوا بسكين . فلما رجع هؤلاء التجار إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلد التى قدموا منها ، فقالوا : ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً وأقل سلاحا وأعجز أهلاً عن مدافعة عدو . وحكوا له الحكايتين فتشجع بذلك وتأهب للاستيلاء عليها

على أن تفاقم استبداد الإسبانيين بأهالى مدينة طرابلس أجبرهم على الهجرة منها والالتجاء إلى مدينة « تاجوراء » ؛ ثم انتخبوا وفداً للذهاب إلى دار الخلافة العثمانية طالبين تخليصهم من أيدى الإسبانيين فأجاب السلطان سليم الأول طلبهم وأرسل معهم مراد بك أغا أحد أغوات الحرم الذى تمكن من تخليصها من أيدى الإسبانيين فى ١٣ أغسطس سنة ١٥٥١ م بعد أن فر حاكمها إلى جزيرة مالطة . وبذلك أصبح مراد أغا حاكماً للمدينة وما زال مسجده الذى بناه فى سنة ١٥٥٤ م فى تاجوراء يحمل ذكراه إلى يومنا هذا . وعبثاً حاول الإسبان وشركاؤهم فرسان مالطة استرجاع المدينة . ولم تبق لهم طريقة ينتقمون بها من العثمانيين سوى انسلال مراكبهم إلى داخل الميناء ليلاً وإحراق السفن العثمانية

هكذا أصبحت طرابلس تحت الحكم العثمانى يتولى شأنها ولاة يعينهم السلطان ، ولكن نظراً لبعد المدينة عن الحكومة المركزية فى الاستانة وضعف خلفاء بنى عثمان بمرور الزمن عمل الولاة على الانفصال عن الحكومة المركزية خصوصاً بعد أن اختلطوا بأهل البلاد . فنرى أحمد باشا القره مانلى يعلن استقلاله فى سنة ١٧١١ م مؤسساً أسرة القره مانلية التى حكمت حتى سنة ١٨٣٥ م . وقد خلفت لنا هذه الأسرة الكريمة عدة آثار قيمة

---

(١) قابس : جنوب شرق تونس على خليج قابس

(٢) من بين هذه الكتب كتاب « المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب » ، طبع نظارة المعارف العثمانية فى سنة ١٣١٧ هـ لمؤلفه المرحوم أحمد بك الأنصارى الطرابلسى عضو مجلس « شهر أمانت » العثمانى

تشهد بعظم شأنها وحسن حكمها ولا سيما أحمد باشا القره مانلي الذي حكم حوالي أربعة وثلاثين عاماً كانت بمثابة العصر الذهبي لتاريخ هذه المدينة ، إذ استطاعت بسط نفوذها على داخل البلاد حتى فزان وحدود برقة شرقاً ، وعمل على حفر قنوات لجلب المياه العذبة للمدينة من العيون القريبة ، فضلاً عن حفره عيناً على الساحل لتزويد البحارة بالمياه العذبة ، وهذا لا يعد شيئاً بجانب مسجده الذي شيده في سنة ١٧٣٨ م ، ومدرسته التي ما زالت عامرة بالطلبة حتى يومنا هذا تستمد نشاطها من الأوقاف المخصصة لها . وكان قصره ندوة لمناصل الدول لكسب صداقته . خصوصاً وأنه اتبع سياسة التسامح نحو المسيحيين فكثر عددهم في المدينة فضلاً عن أنه أحسن معاملة بعثات الفرنسكان . هذا قليل من كثير يشهد بحسن أعمال مؤسس هذا البيت ، ولولا ضيق المقام لأتيت على باقي أعمال أفراد هذه الأسرة التي رفعت من شأن طرابلس وجعلت دول أوربا تخطب ودها نظراً لما كان لأسطولها من سطوة في مياه البحر الأبيض المتوسط

ولولا ذلك الوباء الذي اكتسح المدينة على أثر مجاعة حلت بها سنة ١٧٨٤ — ١٧٨٥ م والذي قضى على أربعة عشر ألف نسمة من سكانها البالغين مائتي ألف ؛ ولولا تلك المنازعات العائلية من أجل تولي الحكم والتي أفسحت المجال للتدخل الأجنبي ؛ ولولا دسائس قنصل فرنسا وانجلترا لافتراس البلاد لبقيت طرابلس محتفظة باستقلالها وكيانها مدة أطول من تلك الفترة التي تمتعت بها ولكن كل هذه العوامل عجلت تداعي الكره مانلي مما ساعد تركيا على استعادة البلاد مرة ثانية يوم ٢٨ مايو سنة ١٨٣٥ م . وبابتداء ذلك التاريخ تبدأ صفحة جديدة في تاريخ مدينة طرابلس الغرب حاول الأتراك خلالها إصلاح الحال ولكن الأجل لم يساعدهم على تحقيق ذلك إذ سرعان ما احتلت الجيوش الإيطالية تلك المدينة في عصر يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩١١ م على أثر إعلانها الحرب على تركيا

وبابتداء هذا التاريخ أيضاً تدخل مدينة طرابلس الغرب في حياة جديدة أرجو التحدث عنها في مقال آخر مع ذكر أهم آثارها ووصف موجز لبعض إحيائها وعادات أهلها وأشهر علمائها ورجالها

مصطفى بعير الطرابلسي
كلية الآداب — القاهرة

الرســـالة في ســـنتها العـــاشرة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء، مع المشتركين القدماء. أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطا أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض إلا إذا بدأوا اشتراكهم من ديسمبر إلى آخر يناير ١٩٤٢

ولن يمد الأجل بعـــد ذلك